المادة: السيرة النبوية
المحاضرة: الهجرة إلى المدينة
المرحلة: الأولى
الأستاذ المساعد الدكتور رضاب حاتم ياسين

BIOGRAPHY OF THE PROPHET
IMMIGRATION TO YATHRIB
THE FIRST STAGE
ASSISTANT PROFESSOR DR. REDHAB HATEM YASSIN

الهجرة إلى المدينة:

لقد سعى الرسول ρ بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية مع أهل المدينة في شهر ذي الحجة من السنة الثانية عشرة للبعثة، على تشجيع أصحابه المكيين للهجرة إلى المدينة قبل أن يهاجر هو بنفسه، وذلك من أجل توجيه عملية الهجرة والاطمئنان على وصول أتباعه إلى المدينة بسلام واستقرارهم فيها.

وحين أمر الرسول ρ أصحابه المكيين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها. فخرجوا أرسالا، وأقام رسول الله ρ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة.

وقد حاول المهاجرون أن يحيطوا أمر مغادرتهم لمكة بجو من الهدوء والسرية، كي لا يثيروا حفيظة قريش عليهم فتعمد إلى منعهم من الهجرة واضطهادهم، فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك. غير أن المحافظة على سرية الهجرة في مدينة صغيرة مثل مدينة مكة كانت أمرا في غاية الصعوبة وبخاصة وأن بعض الأسر قد هاجرت بأكملها، مثل بني مضعون وبني جحش بن رئاب البكير، فإن دورهم غلقت بمكة هجرة، ليس فيها ساكن.

ويبدو أن بعض الأسر المكية قد حاولت منع أبنائها من الهجرة باستخدام القوة ضدهم وعملت على فتنتهم عن دينهم، فقد ذكر ابن إسحاق أن عمر بن الخطاب حينما أراد الهجرة إلى المدينة، اتفق مع عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاصي على أن يلتقوا في وقت ومكان محدد، فإن تخلف أحدهم عن الموعد فمعنى ذلك أنه قد حبس فليمض صاحباه، فلما حان الوقت المتفق عليه حضر عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة وحبس هشام.

وقد مارس زعماء المشركين الضغط على الموالي والمستضعفين لمنعهم من الهجرة، فإن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسول الله ρ، فقال: ربح صهيب، ربح صهيب.

وقد ترتب على الهجرة انقسام بين أفراد الأسرة الواحدة في حالة اختلافهم في العقيدة، فقد رفضت زوجات بعض المسلمين ممن كن لازلن على الشرك الهجرة مع أزواجهن إلى المدينة فأمر الله بطلاقهن، كما أن بعض النساء المؤمنات تركن أزواجهن الكفار وهاجرن إلى المدينة، وكان ممن هاجر من المؤمنات أم كلثوم بنت عقبة بن معيط وأميمة بنت ليث، وقد قام المسلمون بدفع صداقهما إلى زوجيهما الكافرين.

ويلاحظ أن متطلبات الهجرة في ذلك الوقت لم تكن سهلة، وبخاصة لضعفاء الناس وفقرائهم، فكان بعضهم يضطر للسفر على قدميه من مكة إلى المدينة نظرا لعدم وجود راحلة يستعين بها على سفره، فكان المهاجرون يخرجون من مكة إلى المدينة مشاة وركبانا، وأما أهل القوة فركبان ويعتقبون، وأما من لم يجد ظهرا فيمشون.

وعلى الرغم من كل المصاعب التي كانت تقف وراء الهجرة وتحيط بها فقد هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، وكان عدد المسلمين سبعين مسلما، ولم يبق بمكة أحدة من المسلمين إلا من حبس أو فتن.

وهكذا كانت الهجرة عملا عظيما بكل ما تنطوي عليه من تضحية بالأهل والموطن والمال في سبيل الحفاظ على حرية الفكر والعقيدة، فلا عجب ألا يستطيع الإقدام عليها إلا الصفوة من المؤمنين الصادقين.

هجرة الرسول ρ إلى المدينة:

مكث الرسول ρ في مكة بعد بيعة العقبة الثانية بقية ذي الحجة وشهري محرم وصفرن تمت خلالها هجرة جميع أصحابه إلى المدينة إلا من حبس أو افتتن، ولم يبق مع الرسول ρ في مكة سوى علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما بناء على طلبه.

ويبدو أن زعماء المشركين في مكة قد أدركوا خلال هذه الفترة مخاطرة نجاح الهجرة على مصالحهم الاقتصادية والسياسية والدينية، فاجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيما يجب عليهم عمله لمواجهة الموقف.

وقد أشير إلى أنه قد حضر اجتماع الندوة عدد من زعماء قريش الذين يمثلون عشائر نوفل وعبد شمس وعبد الدار وأسد ومخزوم وسهم وجمح. ويلاحظ أن هذه العشائر كانت قد اتخذت موقفا مناوئا للعشائر المكية التي أسهمت في حلف الفضول، وكانت بضمنها عشيرة الرسول ρ أي بنو هاشم، فلا عجب أن تعمل على اتخاذ موقف شديد من الرسول ρ.

وقد تداول زعماء المشركين في حبس الرسول ρ أو نفيه خارج مكة أو قتله، وقد أجمع رأيهم أخيرا على قتل الرسول ρ استنادا إلى خطة اقترحها أبو جهل إذ قال: (نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه)، وبذلك يتفرق دمه في العشائر جميعا، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم، فيرضون بأخذ الدية، وقد ذكرت المصادر أن الرسول ρ قد عرف بهذه الخطة.

وكانت خطة الرسول ρ في الهجرة تقوم على تكليف علي بن أبي طالب τ في المبيت في فراشه كي يوهم المشركين بأنه ما زال في داره ليلة الهجرة، ثم يقوم باصطحاب أبي بكر الصديق τ في هجرته إلى المدينة.

وقد قام أبو بكر الصديق τ بشراء راحلتين للسفر واستأجر دليلا اسمه عبد الله بن أرقط ليصحبهما في سفرهما، كما تولى أبو بكر مع الرسول ρ وضع خطة مغادرتهما مكة وتأمين وصول الطعام إليهما بطريقة لا تسمح لقريش باكتشاف موضع اختفائهما. فخرج رسول الله ρ وأبو بكر τ بصورة سرية إلى غار ثور، وهو جبل

بأسفل مكة فدخلاه، وبقيا فيه ثلاثة أيام مختفين يعيشون على لبن أغنام كان يرعاها عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق τ بالإضافة إلى طعام كانت تأتيهم به أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

حتى إذا خف الطلب ويئست قريش من العثور عليهما خرجا من الغار واتجها صوب المدينة سالكين طريقا غير الطريق الاعتيادي المألوف الذي كان يسلك الوديان والسهول الساحلية، وكان أبو بكر τ يعرف هذا الطريق وأهله من سفراته السابقة إلى بلاد الشام.

واستغرقت رحلة الرسول ρ إلى المدينة منذ أن غادر الغار في جبل ثور في ٤ ربيع الأول إلى أن وصلها في ١٢ ربيع الأول من عام ١٣ للبعثة الموافق ٢٤ أيلول سنة ٦٢٢م، ثمانية أيام. وكان يصحبه في هذه الرحلة أبو بكر الصديق τ ودليلهما عبد الله بن أرقط وعامر بن فهيرة.

لقد كان أهل المدينة يترقبون وصول الرسول ρ كل يوم إلى مدينتهم بفارغ الصبر بعد أن سمعوا بخروجه من مكة، وقد ذكر أنهم كانوا يخرجون للقائه في كل يوم بعد صلاة الصبح ويبقون في انتظاره حتى يشتد عليهم الحر فيعودون إلى بيوتهم، وقد وافق وصول الرسول ρ قباء وهي ضاحية على حدود المدينة في وقت الظهر، وكان الأنصار قد عادوا إلى بيوتهم فشاهده أحد اليهود فراح ينبه أهل المدينة بقوله: يا بني قيلة، هذا جدكم قد جاء.

إن وصف وصول الرسول ρ إلى المدينة يدل على أن ذلك اليوم كان بمثابة عيد للمسلمين حيث خرج لاستقباله حوالي خمسمائة رجل من الأنصار معبرين عن ترحيبهم وسرورهم بمقدمه، وقد شاركهم في التعبير عن هذه المشاعر النساء والأطفال.

ولم يعكر صفو هذا الاستقبال أي مظهر من مظاهر المعارضة أو الاستياء المعلن من غير المسلمين سواء أكانوا مشركين أم من اليهود، مما يدل على قبولهم الضمني لهجرة الرسول ρ وأصحابه إلى المدينة.

بناء المجتمع الإسلامي:

كانت المدينة المنورة حين قدم الرسول ρ إليها أحوج ما تكون إلى إشاعة الحب والسلام والتعاون بين أهلها في إطار من التقوى وعبادة الله تعالى، لذا فقد عمل الرسول ρ على الدعوة للالتزام بهذه القيام وإشاعتها، فقد روي أن أول ما تحدث به الرسول ρ بعد وصوله إلى المدينة قوله: (يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام).

ويبدو أن الرسول ρ كان يدرك جيدا أن تحقيق هذه الأهداف وغيرها من الأهداف التي تساعد على تحقيق الوحدة بين أهل المدينة وتقوية وتوسيع السلطة والنظام في المدينة تتطلب تحقيق مجموعة من الأعمال والتنظيمات فيها، لذا فقد ذكر أن الرسول ρ قام بإنجاز أعمال كبيرة خلال الأشهر الأولى من وصوله إلى المدينة:

إزالة أسباب العداء بين الأوس والخزرج:

لقد وجد الرسول ρ حين وصوله المدينة ونزوله عند بني عمرو بن عوف من الأوس أن أحد أبناء الخزرج وهو أسعد بن زرارة قد خاف أن يأتي للسلام عليه، لأنه كان يخشى أن يثأر منه الأوس لأنه كان قد قتل أحد أبنائهم في حرب بعاث، فلما علم الرسول ρ بالسبب، قال: لسعد بن خيثمة ورفاعة ومبشر ابني عبد المنذر: أجيروه، قالوا: أنت يا رسول الله فأجره فجوارنا في جوارك، فقال رسول الله ρ: يجيره بعضكم، فقال سعد بن خيثمة: هو في جواري، ثم ذهب سعد بن خيثمة إلى أسعد بن زرارة في بيته فجاء بن مخاصرة يده في يده ظهرا حتى انتهى به إلى بني عمرو بن عوف، ثم قالت الأوس: يا رسول الله كلنا له جار، فكان أسعد بن زرارة بعد يغدو ويروح إلى رسول الله ρ.

إن سياسة الرسول ρ المشار إليها آنفا تدل على أنه سعى منذ أن وصل قباء على مشارف المدينة على ممارسة دور الحكم المحايد الذي يعمل على دفن الحزازات وأحقاد الماضي وإقامة مجتمع موحد يقوم على المحبة والتعاون. لذا فقد أطلق اسما جديدا على المسلمين من أبناء الأوس والخزرج مشتقا من مناصرتهم له ولإخوانهم القرشيين، فأسماهم بالأنصار، في الوقت الذي أطلق على المسلمين الذين غادروا موطنهم السابق في سبيل الله اسم المهاجرين، وبذلك أصبح المجتمع الإسلامي الجديد يتألف من المهاجرين والأنصار.

المصادر:

السيرة النبوية: ابن هشام: الجزء الثاني

السيرة النبوية: ابن كثير: الجزء الثاني

الروض الأنف: السهيلي: الجزء الثاني

الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة: هاشم يحيى الملاح